قَضِيَّةُ المُفَاضَلَةِ بَيْنَ المَنْظُومِ وَالمَنْثُورِ فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ

The Issue of Precedence between Poetry and Prose in Old Arabic Criticism

د/ طارق زيناي*

جامعة العربي بن مهيدي * أم البواقي* (الجزائر)

zinaitarek@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020.11.14 تاريخ القبول: 2020.11.24 تاريخ النشر : 2020.12.02

مُلَخَّصٌ:

من المعلوم أنَّ فكرة المفاضلة بين الشعر والنثر قد استأثرت باهتمام النقاد والكتَّاب والشعراء، فاختلفت بذلك الآراء، وتنوعت الأدلة، بين من يرى أنَّ الشعر هو ديوان العرب الذي ليس لهم علم أصحَّ منه، هو المقدم عن النثر، في حين يرى الكثيرون، وخاصة من الكتَّاب أنَّ النثر الذي هو أصل الكلام لا مجال للشعر في أن ينافسه في الأفضلية، وتأتي أهمية البحث في أنه يسلط الضوء على مجمل الأقوال في هذه المسألة عند القدامى، ويرصد أهم تصوراتهم لما يفضل به أحدهما على الآخر، ولعلَّ الإشكالية المطروحة في هذا الصدد تتجلَّى في اختلاف وجهات نظر القدامى لقضية المفاضلة بين الشعر والنثر لتنوع زوايا الرؤية، ولطبيعة الخلفية المعرفية عندهم، وكذا تناول الجدل القائم حول الأسبقية بين الشعر والنثر، وكذا إثبات وجود نثر فني في الجاهلية، أمَّا فيما يخصُّ أهم النتائج المتوصل إليها، فمنها : اختلاف الدارسين المعاصرين في القول بأسبقية الشعر على النثر أو العكس، وإن كان هذا الخلاف لا يقدم ولا يؤخر في أهمية كل واحد منهما، ومنها أن الرأي القائل بعدم ظهور نثر فني في الجاهلية بعيد عن الحقائق والشواهد والقرائن التي تثبت عكسه، ومنها كذلك تنوع الأدلة بين القائلين بأفضلية الشعر على النثر، وكذا القائلين بأفضلية النثر على الشعر في التراث النقدي العربي، بما يطرح أكثر من تساؤل عن جدوى هذا الخلاف، وإن كان القول بأن لكل منهما ما يميزه عن صاحبه، وأنَّ لهما من الأهمية الأدبية والاجتماعية والفكرية التي جاءت استجابة للراهن العربي آنذاك.

الكلمات المتاحية: المفاضلة؛ الشعر؛ النثر؛ النقد العربي القديم .

Abstract:

It is a well known fact that the idea of differentiation between poetry and prose has captured the attention of critics, writers and poets. Therefore, opinions differed, and evidence varied among those who see poetry as the book of Arabs who haven't any other correct knowledge, while many others, especially writers, see the prose as the origin of speech, and there is no room for poetry to compete with it in terms of preference. This research paper sheds light on the sayings of the ancient scholars on this issue, and it scrutinises their most important perceptions of what is preferred by one over the other. The problem raised in this regard is manifested in the divergent viewpoints among the ancient scholars on the issue of differentiation between poetry and prose due to their diverse perceptions and the nature of

* المؤلف المرسل

their knowledge. This paper also tackles the controversy over the precedence between poetry and prose, as well as the proof of the existence of artistic prose in "El jahilyya" (pre-Islamic era). The findings reveal controversy among contemporary scholars on the precedence of poetry over prose or vice versa. This disagreement neither provides nor delays the importance of one over the other. Perspective that denies the existence of prose in "El jahiliyya" is far from the facts and evidence that prove the opposite. Standpoints that poetry is superior to prose or prose is superior to poetry in the Arab critical heritage raise more than one question about the feasibility of this disagreement, although each literary genre has its own features that distinguish it from the other, and both have literary, social and intellectual importance that came in response to the Arab situation at the time.

Keywords: Precedence; poetry; prose; old Arab criticism.

نصُّ المقال :

تعدُّ فكرة المفاضلات من بين القضايا التي استطاعت بناء تصورات واضحة حول الفاضل والمفضول في الدرس النقد العربي القديم، ومن بين ما تناولته المفاضلة بين الشعر والشعراء، وبين الأجناس الأدبية داخل النوع الأدبي الواحد، وبين الأجناس الأدبية بين الأنواع المختلفة، ولعلَّ المفاضلة بين الشعر والنثر، أو بين المنظوم والمنثور هي من بين ما تطرق له القدامى بإسهاب أو باقتضاب منذ القرن الثالث الهجري حين استبد سلطان الكتَّاب عاليا في سماء الدولة الإسلامية، وأصبح يطاول في أهميته الشعر، بل يفوقه، يقول إحسان عباس عن هذه المفاضلة : «هي محاولة لتفسير ما كان سائداً في المجتمع من رفعة الكاتب وانخفاض شأن الشاعر »[1] ونحن سنحاول في هذه الدراسة التطرق لأبعاد هذه القضية وذكر أدلة كل طرف فيها، ومحاولة الترجيح بينها، وقبل ذلك بيان أي الفنَّين أسبق في الظهور من الآخر، وهل ظهر نثر فني في الجاهلية أم لا ؟ وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة إماطة اللثام عن أطراف هذه القضية في النقد العربي القديم، ورصد وجهات نظر أصحابها في مختلف العصور، مع الاستعانة بآراء المعاصرين، وقد اتبع الباحث الوصف والتحليل كآليتين في تناوله لهذه القضية.

وقبل تناول وجهات النظر الخاصة بالمفاضلة بين الشعر والنثر لابد من التعريج إلى قضية مصاحبة لطالما أشار إليها الدارسون المحدثون؛ وهي فكرة الأسبقية أو الأولية للشعر على النثر أو النثر على الشعر :

القَائِلُونَ بِأَسْبَقِيَّةِ الشِّعْرِ عَلَى النَّثْرِ:

يذهب كثير من الدارسين– وعلى رأس أولئك طه حسين[2] والعقاد – إلى أن الشعر قد كان أسبق من النثر ظهورا عند العرب، ولهم في ذلك أدلة يمكن إجمالها في النقاط التالية :

*/ أن الشعر هو لغة الوجدان والحس ومنبع الخيال والتصوير، وهذه الملكات تظهر عند الفرد في طفولته، وهي بذلك تظهر عند الأمم كذلك في أولياتها.

*/ أن تاريخ الأمم قديمها وحديثها دائما يظهر فيها الشعراء وكتاب الملاحم قبل الفلاسفة وأرباب العقول، وخير مثال على ذلك : اليونانيون إنما ظهر فيهم الشعراء أمثال هوميروس قبل ظهور سقراط وأفلاطون وأرسطو، يقول مؤلفو كتاب التوجيه الأدبي: « فإذا تأملنا تاريخ الأدب في أمة من الأمم رأينا أن الشعر سابق لسائر الفنون

الأدبية، فعند اليونان كانت قصائد ((هوميروس)) تُنشد ويُتغنَّى بها قبل أن يؤلف كتابٌ، أو يظهر نثر فنيٌّ » [3]
ويؤكد العقاد هذه الفكرة بقوله : « والآداب اليونانية هي مرجع الباحثين
عن أوائل الآداب الأوروبية القديمة، وهي شاهد آخر سبق النظم للنثر في جميع الآداب... » [4]

وقد مثل طه حسين بالبيئة المصرية كيف أن الشعر العامي كان سابقا عن النثر بكل أنواعه يقول في ذلك : « وأنت تستطيع أن تلتمس ذلك في أقاليمنا المصرية نفسها، فسترى البيئات المصرية الجاهلة تنظم الشعر في لغتها العامية، ولكنها لا تعرف النثر في هذه اللغة إلا حين تأخذ بحظ من التعليم يختلف قلة وكثرة » [5]

*/ أن النثر لا يمكن ظهوره قبل الشعر لسبب بسيط هو أنه لغة العقل ومظهر من مظاهر الفكر النَّاضج؛ وهذه الملكة لا تظهر في أمة إلا إذا بلغت مبلغا واضحا في التحضر والمدنية والاستقرار، وهذا ما لم يكن للعرب في الجاهلية، فهم كانوا أمة أمية بسيطة التفكير، لم يتجاوز اهتمامها– في الغالب – توفير موارد الحياة وما يقوم به أمرهم من تتبع مساقط الغيث ومنابت الكلأ، وحياتها كانت قائمة على النجعة والترحال المستمر، وهذه الحياة لا يمكن أن تسمح بظهور أي نثر فنيٍّ لانعدام المقتضى، يقول طه حسين : « فالنثر إذن متأخر حديث العهد بالقياس إلى الشعر، وهو لا يظهر ولا يقوى عادة إلا حين تظهر في الجماعة وتقوى هذه الملكة المفكرة التي نسميها العقل، وحين تظهر وتشيع هذه الظاهرة الاجتماعية التي نسميها الكتابة؛ فالعقل يفكر ويروي ويحتاج إلى أن يعلن تفكيره وترويته، والكتابة تمكنه من أن يقيد تفكيره وترويته ويعلنهما إلى الناس، ولا بد من أن تظهر آثار هذه القوة المفكرة التي نسميها العقل في الشعر قبل ظهورها في النثر؛ حتى إذا ضاق الشعر بوزنه وقافيته عن تفكير العقل احتاج العقل إلى أن يتحلل في التعبير عن أغراضه من هذه القيود الشعرية من وزن وقافية ولغة خاصة واعتماد على الخيال. ومن هذه الحاجة التي يشعر بها العقل حين يضيق به الشعر يظهر النثر؛ فيعتمد العقل على لغة التخاطب وأساليبه ليتحدث إلى الناس. ثم ما يزال بهذه اللغة والأساليب يصلحها ويهذبها حتى ينشأ له فن جديد ليس شعرا وليس لغة تخاطب، وإنما هو شيء وسط بينهما، ويقوى هذا الفن شيئًا فشيئًا بمقدار ما يقوى العقل ويرقى حتى يتم تكوينه، فإذا هو لغة التاريخ والفلسفة والدين، وإذا هو مظهر من المظاهر الأدبية الخالصة» [6]

ويقول طه حسين كذلك مدللا على أسبقية الشعر على النثر: « وكذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم التي كانت لها حياة أدبية وكان لها شعر ونثر، نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعرا ، وأن الشعر وجد فيها قبل أن يوجد النثر بزمن طويل، وأنا إذا قلت النثر فلا أعني ذلك النثر الذي يفهمه جوردان، إنما أقصد النثر الذي يفهمه الأديب، فالأمم التي لها أدب، قبل أن تعبر عن عواطفها وميولها بالنثر، عبرت عن لذتها وآلامها بالشعر، وكان الشعر هو لسانها الأدبي، فلما تطورت هذه الأمم، وارتقى عقلها، وتغيرت نظمها السياسية والاجتماعية، واتصلت بغيرها من الشعوب، نشأ عن ذلك أن وِجدت فيها أفكار وآراء لم توجد عندها من قبل.

واحتاجت أن تنظم هذه الأفكار والآراء، وأن تصورها وتعلنها، فعجز الشعر عن أن يعبر عنها، واضطرت أن تعبر عن هذه الحاجات بأوسع من الشعر فعبرت عنها بالنثر. لذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم كالأمة اليونانية

مثلاً ، نراها أولا شاعرة، تنشئ الشعر قصصيًا ثم غنائيًا ثم تمثيليًا، ولا ينشأ النثر عندها إلا في وقت الاضطراب السياسي، الذي تتغير فيه نظم الحكم والحياة الاجتماعية .وتشتد الصلة بني اليونان والأمم الشرقية والغربية المختلفة وتنشأ أفكار جديدة، منها السياسي، ومنها الفلسفي، ومنها الديني، هنالك تضطر إلى أن تعبر عن هذا كله، ويعجز الشعر عن أن يسعه، فينشأ النثر، ومثل هذا نجده عند الأمة الرومانية » [7]

ومعلوم أن العرب في جاهليتها كانت تسير على هذا النسق، فهي أمة شاعرة بالطبع، وقد تجلى الشعر في جميع مناحي حياتها السياسية والاجتماعية، اللذين طبعا عندهم بطابع وجداني تفرضه الطفولة الإدراكية التي كان يعيشها العربي آنذاك، فلم يكد يظهر عندهم ما يشجع على ظهور النثر، سواء من حيث غياب الاستقرار والروية والكتابة والقراءة، أو من حيث البعد عن نقاط التماس الحضاري مع الأمم العالمة المتاخمة للعرب، ولكن الأمر سيختلف مع ظهور الإسلام وتغير المعطيات الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتنوع مصادر التماس والتلقي عن الأجنبي سواء عن طريق الفتوحات الإسلامية أو ترجمة الكتب، واطلاع العرب على العلوم والمعارف، كل هذا كان له دوره في تغير البنية الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية للعرب، ما فتح الباب واسعا لظهور النثر « فبعد أن كانوا في عصرهم الأول متأثرين بالحس والشعور، أخذوا في هذا العصر الجديد يفكرون ويروون، وظهرت أمامهم مسائل ومشكلات جعلتهم يفكرون ويتلمسون الحلول لتلك المسائل المعقدة، فنشأ عن هذا كله أن تغيرت الحياة، وتغيرت موضوعات التفكير واستلزم ذلك أن تتغير العبارة التي يعبرون بها عما في أنفسهم، ونشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل، وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية » [8]

ويتساءل العقاد في هذه القضية قائلا : « وإذا سأل السائل أيهما أسبق الكلام أم الشعر؟ فلا محل للخلاف، ولا لإطالة الروية قبل الجواب، فإن اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء، ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف: أيهما أسبق الشعر أم النثر؟ » [9] ويجيب عن هذا التساؤل المعتبر والمشروع بقوله : « ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل، نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع، ولكنه رأي يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية، ولا ينقضه من الواقع شيء معلوم حتى الآن » [10]

ثم راح بعد هذا الإجمال في إصدار الحكم إلى تفصيله، وذلك بذكر هذه القرائن التي يتحدث عنها، من ذلك أنه لم يعلم تاريخيا أن هناك كتّابا تكلموا بالنثر قبل فترة أوليات الشعر العربي في الجاهلية، وأن السجع الذي يمكن أن يُظن أنه شعر متطور، أو أنه نوع من أنواع النثر الفني، فإن الكثير منه لا تثبت صحته، وإن فرضنا صحته فإن « التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور ليس فيه شعر، ولن نعرف عن الشعراء في أقدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا، ولم تزل أسجاع الكهانة غير أوزان ((الشاعرية)) في طبيعتها وموضوعها؛ فالكاهن لا يتدرج من السجع إلى النظم، والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع » [11]

في حين أن عز الدين إسماعيل القائل بهذا الرأي يرجع أسبقية الشعر لمعطى بيولوجي بحت متعلق بالبنية التكوينية للإنسان، التي تقوم على تحرك المشاعر والأحاسيس فيه قبل الأفكار والتصورات، يقول في هذا :

« فالشعر هو الصورة التعبيرية الأولى التي ظهرت في حياة الإنسان منذ العصور الأولى، وهذه الأقدمية التي للشعر ترجع إلى أنه كان في تلك العصور ضرورة حيوية بيولوجية » [12]

القَائِلُونَ بِأَسْبَقِيَّةِ النَّثْرِ عَلَى الشِّعْرِ:

ويذهب إلى هذا الرأي طائفة من النقاد المحدثين، حيث ذكروا أولية النثر في الظهور بالقياس إلى الشعر، إلا أنهم اتفقوا على ضياع أكثره في مجاهل الزمن الجاهلي، بسبب عدم نقل الرواة له لمن بعدهم إلى عصر التدوين، ولعدم تقيده بالوزن والقافية والإيقاع، هاته العناصر التي بغيابها ساهمت في ضياعه لصعوبة حفظه دونها، ولهم كذلك أدلة يرونها كفيلة بإثبات وجود النثر، منها أنه لا يعقل أن تكون أمة – ولو كانت أمية (لا تكتب ولا تقرأ) – لها لغة تتحاور بها، وتتواصل من خلالها ليس لها كلام شفوي خطابةً أو رسالةً أو وصيةً أو مثلا وحكمةً؟ والإجابة تكون بالنَّفي قطعا، وشواهد الأمم الأخرى تدل على ذلك، بل إن طه حسين المنكر لأسبقية النثر على الشعر، يقول عن حضور الخطباء الجاهليين أنهم « كانوا يُقنعون ويحاجُّون معتمدين في ذلك خلب أسماع السامعين » [13] وهذا التوصيف كما هو ملاحظ يتوافق تماما مع حقيقة النثر الفني من القوة العقلية المتمثلة في الإقناع والحجاج، والمقدرة الفنية المتمثلة في التأثير على السامعين.

وهنا نقطة أخرى وهي أن القول بأن الإنسان الجاهلي الأول أحس قبل أي يفكر، فجاء الشعر قبل النثر، قول لا يمكن التسليم له بإطلاقه، إذ لا يعقل في العرف الإدراكي البشري أن تشتغل الملكة الوجدانية، وتأفل الملكة العقلية، ثمَّ أليس يمكن أن يكون النثر نابعا عن الإحساس والشعور، والشعر نابعا عن التفكير والتعقُّل، والشواهد الكثيرة في الجاهلية تثبت ذلك، وما شعر زهير وطرفة وحكمهما إلا دليلا على وجود البعد التأملي في الشعر الجاهلي، وما التأمل إلا ثمرة الفكر، ولهذا فالقول بأن الأحاسيس والأفكار كيانات متناقضة خطأ بيِّنٌ، فهما وإن اختلفا في حقيقتهما ومصدريتهما، فلهما علاقة طردية بالشعر والنثر سواء بسواء، يقول عز الدين إسماعيل مقررا هذه الفكرة :« ومن هنا ارتبطت ((الانفعالات)) بالشعر، و((الأفكار)) بالنثر، ولكن الخطأ في الفهم يأتي عادة من النظر إلى ((الانفعالات)) و((الأفكار)) على أنها أشياء متعارضة أو متناقضة، وهذا من شأنه أن يجرَّ إلى أخطاء كثيرة في فهم الشعر والنثر على السواء، وليس هناك تعارض، بل هو مجرد اختلاف » [14]

وهذا الطرح قد ذكره أبو سليمان المنطقي في صورة أخرى قارب من خلالها بين البديهة المرتبطة بالشعر، والروية المرتبطة بالنثر في علاقتهما بالحس والعقل، يقول في ذلك : « الكلام ينبعث في أوّل مبادئه : إمّا من عفو البديهة، وإمَّا من كدِّ الرَّويّة، وإمّا أن يكون مركَّبا منهما، وفيه قواهما بالأكثر والأقلّ، فضيلة عفو البديهة أنّه يكون أصفى، وفضيلة كدّ الرَّويّة أنه يكون أشفى، وفضيلة المركّب منهما أنه يكون أوفى، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقلُّ، وعيب كدّ الرويّة أن تكون صورة الحسّ فيه أقلُّ، وعيب المركّب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف، على أنّه إن خلص هذا المركّب من شوائب التكلّف، وشوائن التّعسّف كان بليغا مقبولا رائعا حلوا، تحتضنه الصّدور، وتختلسه الآذان، وتنتهبه المجالس، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس، والتّفاضل

الواقع بين البلغاء في النّظم والنّثر، إنما هو في هذا المركّب الذي يسمّى تأليفا ورصفا، وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح، وأن تكون صورة الحسّ في الرّويّة الوح إلا أنّ ذلك من غرائب آثار النّفس ونوادر أفعال الطّبيعة، والمدار على العمود الذي سلف نعته، ورسا أصله »[15]

مما يُستفاد من النص السابق ما يلي :

*/ أن جنس الكلام لا يعدو أن يكون إما مبعثه البديهة والارتجال، وإما مبعثه الروية والتؤدة، وإما أن يكون مركّبا منهما؛ أي له نصيب قل أو كثر منهما جميعا حين ينشئ الخطيب خطابه، أو يدون الكاتب كتابه.

*/ أن فضيلة البديهة ترجع إلى صفائها، أي بعدها على التعقيد والتكلف والتمحل، في حين أن فضيلة الروية ترجع إلى كونها خطابا كافيا مستوفيا لعلة التمهل والتعقل، وإجالة الفكر، والذي يأتي مركبا منهما أجدر بأن يكون متكاملا ووافيا وجامعا بين كلا الملكتين.

*/ وهذه النقطة هي شاهد الفكرة التي طرحناها من قبل، حيث عبر أبو سليمان على نسبية حضور البديهة في الحس، والروية في العقل، وأنهما - وإن كان الأصل هو هذا – يمكن أن يتبادلا الأدوار، فتحضر البديهة في العقل، والروية في الحس، ومدار الإحسان والإجادة والإتقان في أي خطاب لا يرجع إلى اتصافهما بالبديهة والروية بقدر ما يتحقق فيهما البعد عن التكلف والتعسُّف والتعمُّل.

تَرْجِيحُ أَحَدِ الرَّأْيَيْنِ :

إذا كان غالب الدارسين يرون أن الشعر أسبق من النثر، ولهم في ذلك أدلتهم، إلا أن رأي من يرى عكس ذلك له وجاهته أيضا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الشعر صناعة تحتاج كذلك - زيادة على الموهبة أو الإلهام- إتقان أدوات معينة في كل مراحل تشكُّلها، وهو أمرٌ متعسر بالقياس إلى النثر الذي وإن كان يحتاج إلى فكر وروية وتؤدة إلا أنه كلام من جنس كلامهم اليومي، فالعربي بإمكانه الإتيان بنثر فني جيدٍ؛ لأنه مجبول على الفصاحة والبلاغة والبيان، وخير دليل على ذلك أمثالهم وحكمهم، التي قيلت وضربت في ثنايا حديثهم، فلم يكونوا يحتاجون حين قالوها بأكثر من شحذ العقل وصقل الوجدان لحظة من الزمن، فلو كان المقصود بالنثر ما كان علميا أو فلسفيا، لم يكن هناك خلاف في تأخره عن الظهور بالقياس مع الشعر الغنائي؛ لأنه يحتاج إلى نضج عقلي واستيعاب للمفاهيم والتصورات المختلفة، لكن إذا كان المقصود بالنثر الفني في شكله المتعارف عليه، فهنا الخلاف بين الدارسين، ولا يبقى لنا إلا نقول بتزامن ظهور كلا الفنين تزامنا اعتباريا، أو لا نرجح كفة على أخرى ترجيحا قاطعا ونهائيا.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن طه حسين يرى في تقسيم الكلام إلى شعر ونثر ضرورة تعليمية وإلا فهو تقسيم ساذج مسطَّح لا يمكن الاعتماد عليه، إذ لا يقدم شيئا للدراسات الأدبية، وهنا يمكن أن نجد تخريجا متوازنا بين كلا الرأيين المختلفين أن القائلين بإنكار أسبقية النثر على الشعر وعلى رأسهم طه حسين، إنما يقصد به النثر الفني المتجاوز للوظائف التواصلية والاجتماعية البسيطة الخالية من الإدهاش والتأثير الجمالي، يقول طه حسين

مقررا هذه الفكرة : « فالأحاديث العادية، ولغة التخاطب، وهذه العبارات التي يتبادلها الناس، لا تعنينا في درس الأدب العربي وتاريخه؛ إذ إن قيمتها لا تظهر إلا حينما يكون لها حظ خاص من جمال أو لذة فنية خاصة »[16]

وهنا كما أسلفنا يمكن استحضار طبيعة الكلام العربي في صبغته التواصلية اليومية، وأنه ليس ككلامنا اليوم من حيث الإحكام والإتقان الذي يكاد يقترب من كلامهم العالي سواء شعرا أو نثرا فنيا كما يصطلح عليه.

وإن كان كلاهما له الأهمية في حياة الناس، وأن حضوره عندهم كان طبيعيا لوجود مقتضيات هذا الظهور، يقول طه حسين مقاربا علة ظهور كلا من الشعر والنثر بقوله : « فالشعر ضرورة من ضرورات الحياة في طور من أطوارها، فإذا انقضى هذا الطور أصبح الشعر عاجزا عن أن يقوم بشيء من ذلك، وأصبح النثر خليفته يصور هذه الأشياء الجديدة، والشعر الذي كان ضرورة أولا يصبح في الطور الثاني ضربًا من الترف والزينة، والحياة لا تستطيع أن تستغني عن كليهما »[17]

إن الكلام عن أسبقية النثر على الشعر يعدُّ عن القائلين بخلافه نتيجة لمقدمة خاطئة؛ هذه المقدمة هي انعدام شيء اسمه النثر نهائيا في العصر الجاهلي، وعدم معرفة العرب به، وهذا الكلام يجرنا إلى النقطة الموالية وهي :

إِشْكَالِيَةُ فِي ظُهُورِ النَّثْرِ الفَنِيِّ فِي الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عَدَمِهِ :

يرى البعض وعلى رأسهم طه حسين، عدم وجود نثر فني في الجاهلية، مبررا موقفه بحججٍ، أهمها : أن الحياة البسيطة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام ما كانت لتسمح لهم بقيام أي لون من ألوان النثر الفني، الذي يستحيل نشوؤه وازدهاره في ظل حياة العرب غير المستقرة؛ القائمة على النجعة والتنقل الدائمين، والنثر بطبعه محكوم بالروية، لأنَّه « لغة العقل والتفكير، لا يظهر عند أمة، من الأمم، إلا متى بلغت تلك الأمة درجة عالية من المدنية والحضارة، بخلاف الشعر، لغة العاطفة والخيال، فإنه يرافق الإنسان منذ طفولته الإجتماعية »[18]، ليصل في النهاية إلى نتيجة مفادها إنكار وجود نثر فني في العصر الجاهلي، يقول في هذا : « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال – مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه – أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنيٌّ، والذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن »[19] ولكن مع ذلك هو يثبت وجود نوع من النثر البسيط في الجاهلية الذي لا يمكن أن نصفه بالفنية والجمالية، وإنما هو وليد المعطى الاجتماعي والقبلي والسياسي مثل الخطابة والوصية والرسالة، ولكنه لم يصلنا لصعوبة روايته بسبب خلوه من الوزن والقافية، وضعف الذاكرة في حفظه وتثبيته.

وفي مقابل هذا الرأي هناك من يؤكد وجود نثر فني في العصر الجاهلي له خصائصه وقيمته الأدبية والفنية، مع إقرارهم أنَّ الكمَّ الكثير منه ضاع من أيدي العرب لصعوبة روايته ولندرة تدوينه، وعلى رأس هذا الفريق زكي مبارك، وقد اعتمد في هذا الترجيح إلى نقولات عن الأوائل منها ماروواه الجاحظ عن عبد الصمد الرقاشي قوله: « وما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره »[20]، زيادة على هذا أن النثر الفني كان موجودا عند أكثر الأمم التي جاورت العرب

كالفرس والهنود والمصريين واليونانيين، فليس « بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثرٌ فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون، ثم لا يكون للعرب نثر فنيّ، بعد الميلاد بخمسة قرون » [21] أما الدليل الأقوى على وجود نثر فني في الجاهلية فهو القرآن الكريم، الذي يقدِّم صورة واضحة عن شكل هذا النثر وحالته، التي كان عليها قبل ظهور الإسلام، فلا يعقل أن يخاطب القرآن قوما إلا بأسلوب القول الشائع لديهم، وفي القرآن نص صريح على أن الرسول لم يبعث ﴿ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤]، هذا بالإضافة إلى أن كتب الأدب ومصادره قد حفظت لنا كثيرا منه كالأمالي والأغاني والبيان والتبيين والكامل...ولعل الحق في المسألة أن العرب كان لها نثر في الجاهلية « ضاع معظمه، لأسباب منه شيوع الأمية، وندرة التدوين، وميل الذاكرة عن حفظ المنثور إلى حفظ المنظوم » [22]، الأمر الذي انعكس على صعوبة تحديد بنياته التركيبية وسماته الأسلوبية، هذا بالإضافة إلى ما دخله من انتحال ووضع في عصور لاحقة (العصر الأموي بصفة كبيرة وبدايات العصر العباسي)؛ لأن العرب لم يعنوا بحفظ منثورهم، إلا ما علق في أذهانهم من نفائسه لبلاغته وإيجازه واشتهاره بين الناس، بخلاف الشعر؛ الذي كثر حافظوه وناقلوه شفاهة لسهولة حفظه لاعتماده الوزن والقافية كما أسلفنا، وهذا القليل المشكوك في صحة أكثره يمتاز بموافقته الطبع وجريانه على الفطرة اللغوية الشائعة عند العرب، فلا تكلف ولا تمحُّل ولا زخرفة فيه، فهو فخم اللفظ قويه، حسن التركيب متينه، قصير الجمل، منوع الأسلوب، بعيد عن الترادف، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، واضح الفكرة فلا تعقيد ولا تركيب فيه، معانيه مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم، تكثر فيه الأمثال والحكم، أما فيما يخص أغراضه، فقد كان يدعو إلى الانتقام والأخذ بالثأر، وإلى العصبية، أو يدعو إلى السلم والصلح وإصلاح ذات البين، وكان توصيفا للحياة في تقلباتها، في آلامها وآمالها، في حزنها وفي فرحها، في إقبالها وفي إدبارها ، وقد كانوا يتكلمونه معربا خاليا من اللحن، لما يملكونه من قوة السليقة، وقلة الاختلاط بالأعاجم، اللهم إلا ما تفردت به قبيلة عن أخرى بلهجات وهيئات الكلام كالترقيق والتفخير والقلب والإبدال والإمالة.

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ فِي التُّرَاثِ النَّقْدِيِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ :

لقد طرح النقاد القدامى والمحدثون هذه القضية، وأفاضوا القول فيها في مؤلفاتهم، بحيث لا تكاد تطالع كتابا نقديا، إلا وتلمح الإشارة إلى هذه القضية باقتضابٍ أو إسهابٍ، بل تلحظ تعصبا من بعضهم للنثر على حساب الشعر أو العكس، بحيث يسوق الأدلة والحجج في تغليب كفة على أخرى، يقول ابن الأثير مبيا الخلاف في هذه المسألة: « واعلم أن الأقوال متعارضة في تفضيل كل واحد من هذين القسمين على الآخر » [23]، ولعل من أوائل ما وصلنا عن طرح هذه القضية هو ما سأل عنه أحمدُ بن الواثق المبردَ : « أيُّ البلاغتين أبلغُ أبلاغة الشعر، أم بلاغة الخطب، والكلام المنثور والسجع ؟ وأيتها عندك– أعزك الله – أبلغ ؟ » [24] وقد اشتدَّ هذا الجدل ليس في بيئات النقاد فقط، بل حتى عند الفلاسفة والمتكلمين في القرن الرابع الهجري وما بعده، وقد ذكر لنا التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة والمقابسات طرفا منها، خاصة مع أبي سليمان المنطقي (ت380هـ)، وأبي إسحاق الصابي

(ت383هـ)، وابن هندو الكاتب (ت 420هـ)، وفيما يلي سنحاول التطرق لهذين المذهبين مع ذكر أهم أدلة كل واحد منهما:

القَائِلُونَ بِأَفْضَلِيَّةِ الشِّعْرِ عَلَى النَّثرِ :

يعدُّ أبو هلال العسكري من أوائل من أفصح وأبان عن موقفه من قضية المفاضلة بين الشعر والنثر لصالح الأول، وإن كان إفصاحه هذا هو تعبير عن قناعة أكثر العرب لمنزلة الشعر عندهم التي لا تضاهيها منزلة أخرى، وله في ذلك نصٌّ طويل مشبعٌ بفضائل الشعر ومزاياه، يقول فيه : « ومما يفضل به غيره أيضا طول بقائه على أفواه الرّواة، وامتداد الزمان الطويل به؛ وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض؛ وهذه خاصة له في كلّ لغة، وعند كلّ أمة؛ وطول مدة الشيء من أشرف فضائله، ومما يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس وبعد سيره في الآفاق؛ وليس شيء أسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال، وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر.

ومما يفضل به غيره أنه ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام؛ فكم من شريف وضع، وخامل دنيء رفع؛ وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب.

ومما يفضلهما به أيضا أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنيّة، ولا يهتزّ ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه؛ وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام، ومنه أنّ مجالس الظّرفاء والأدباء لا تطيب، ولا تؤنس إلّا بإنشاد الأشعار، ومذاكرة الأخبار؛ وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشعار؛ وهذا شيء مفقود في غير الشعر.

ومما يفضل به الشعر أن الألحان- التي هي أهنى اللّذات- إذا سمعها ذوو القرائح الصافية، والأنفس اللطيفة، لا تتهيّأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر؛ فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشريفة؛ إلّا ضربا من الألحان الفارسية تصاغ على كلام غير منظوم نظم الشعر، تمطّط فيه الألفاظ؛ فالألحان منظومة، والألفاظ منثورة.

ومن أفضل فضائل الشّعر أنّ ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها، وفحلها وغريبها من الشعر؛ ومن لم يكن راوية لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته.

ومن ذلك أيضا أنّ الشواهد تنزع من الشّعر، ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول صلّى الله عليه وسلّم شاهد، وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلّا من جملة أشعارها؛ فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها؛ فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدّب بلغة العرب أو ناظر في علومها [إليه] ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة » [25]

وأما الجاحظ فلا نكاد نحصل عنده على رأي فصل في هذه القضية قصارى ما نجده عنده هو محاكمة النثر لمقاييس الشعر، يقول عبد السلام المسدي في هذه النقطة : « أما داخل هذا السلم [26] فإن الجاحظ يكاد يجعل

من الشعر رمزا للخلق الأوفى، لذلك نراه يخصُّ نقد الأسلوب النثري ببعض المقاييس المستقاة من خصائص الحياكة الشعرية » [27]

وأيضا نجد ابن رشيق يسير في الاتجاه نفسه فقد عقد بابا في عمدته : " باب فضل الشعر" يقول فيه : « وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة » [28]

في النص السابق نجد أن ابن رشيق في مفاضلته بين النظم والنثر إن اتفقا في القدر والقيمة يرجع إلى النظم، وعلة هذه الأفضلية عنده منوطة بحكم العرف والعادة، وبظاهر التسمية؛ التي تجعل الشعر لا يُطال ولا يُقدر عليه، أما حكم العادة فواضح لما أشرنا إليه من منزلة الشعر في الضمير الجمعي للعرب منذ الجاهلية، والذي لا يحتاج لكثير بيانٍ، أما ظاهر التسمية فيرجع إلى حقيقة أن الشيء المنثور (المطروح على غير نظامٍ) لا يمكن أن يقاس بالشيء المنسق والمنتظم بطريقة مطردة، وقد شبه هذه الصورة للمنظوم والمنثور بالدر، يقول في ذلك : « ألا ترى أن الدرَّ وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يُؤمنْ عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع » [29]

ومما ذكره ابن رشيق كذلك في فضائل الشعر قوله : « ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين » [30]

وهذا كلام يعدُّ من تقاليد الشعراء في مدائحهم ومخاطباتهم، هكذا تعارفوا وتواضعوا عليه، وإن كان في بعض الخطابات النثرية ما للشعر من الخصائص السابقة الذكر، فليس هذا مدعاة للفخر في حد ذاته.

وممَّا يحسب للشعر كذلك - كما يقول ابن رشيق — أن « الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه، وحسبك ما حسن الكذب، واغتفر له قبحه » [31]، هذا كلام ليس محل اتفاق بين الناس، فهناك من يحظر الكذب مطلقا لا في الشعر ولا في غيره، ويراه داخلا في التوجه اللَّا أخلاقي الذي من خلاله ذمت النصوص القرآنية والنبوية الشعر.

ولم يخرج الحاتمي (ت388هـ) عن هذا التوجه حيث أعلنها صراحة تفضيله الشعر على النثر بقوله : « ووجدت البلاغة منقسمة قسمين: منظوماً، ومنثوراً، وأولى هذين القسمين بالمزية – والقدم للمتقدم– المنظوم فإنه أبدع مطالع، وأنصع مقاطع، وأطول عناناً، وأفصح لساناً، وأنور أنجماً، وأنفذ أسهماً، وأشرد مثلاً، وأسير لفظاً ومعنى » [32]

ويعدُّ أبو حيان التوحيدي من القلة الذين تناولوا المفاضلة بين الشعر والنثر بتطويل وعرضٍ لأدلة كلا الفريقين، واستحضار لشواهد العلماء حول هذه القضية بما يجعل الكفة متساوية بينهما، من ذلك قول السلامي رابطا بين الشعر والغناء : « من فضائل النّظم أنّه لا يغنّى ولا يحدى إلا بجيّده ولا يؤهّل للحن الطّنطنة، ولا يحلّى بالإيقاع الصحيح غيره، لأن الطّنطنات والنّقرات، والحركات والسكنات لا تتناسب إلّا بعد اشتمال الوزن والنّظم عليها، ولو كان فعل هذا بالنّثر كان منقوصا، كما لو لم يفعل هذا بالنّظم لكان محسوسا، والغناء معروف الشّرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر النفع في معابثة الروح، ومناغاة العقل، وتنبيه النّفس، واجتلاب الطّرب وتفريج الكرب، وإثارة الهزّة، وإعادة العزّة، وإذكار العهد، وإظهار النّجدة، واكتساب السّلوة، وما لا يحصى عدده» [33]

وهذا حقٌّ في ارتباط الغناء بالكلام الموزون والإيقاع المتناسق، إذ لو غاب مثل هذا عن الكلام أضحى الغناء سمجا نابيا عن الذوق السليم والطبع الرائق، وهذا دليل لا مطعن فيه، إلا أن يستقبح بعض الناس الغناء في ذاته تديُّنا أو طبعا.

ومن أدلة القوم كذلك محتجين للشعر على النثر قول بعضهم : إن « النثر لما كان سهلاً عند العرب هيناً، والنظم شاقاً عليهم مستصعباً، عمدوا إلى الأصعب وتركوا الأسهل؛ لأنهم إنما كان غرضهم إظهار قوتهم في البلاغة والفصاحة، وإذا كان ذلك فيما هو أشق مسلكاً وأوعر مذهباً، كان أدل على تمكنهم من الكلام. وأما النثر فما كان عندهم بمنزلة ما يرغبون فيه، ويتنافسون عليه؛ لسهولته عندهم! ولهذا لم يعتنوا به ويكثروا منه، كما فعلوا في النظم! » [34]

وذكروا دليلا آخر متعلقا بالذي سبقه؛ وهو أن القرآن الكريم نزل على العرب نثرا « ليكون آية لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومعجزة على يده، ليفحم به أولئك الفصحاء والبلغاء من العرب، لأنهم كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة، وحيث كان النثر سهلاً عندهم يسيراً عليهم أنزل الله تعالى القرآن على أسلوبه ليعجزهم، بما هو أسهل عليهم من غيره، ليكون ذلك أعظم في الإعجاز » [35]

ويستدرك ابن الأثير عن الدليلين السابقين بردٍّ يبطل فيه القول بأن سهولة النثر عن العرب ونزول القرآن نثرا إعجازا للعرب بأن يأتوا بخطاب يحسنونه من جنس خطابهم؛ إذ لو تحدَّاهم بالأصعب عندهم لم يكن أبلغ في الإعجاز، وذلك في قوله : « فالجواب عن ذلك أنا نقول: قد ثبت أن المعجزات التي على أيدي الأنبياء – صلوات الله عليهم – لم تأت ممَّا كان سهلاً على أممهم، لأنهم إنما جاءوا بإحياء الأموات، وانشقاق البحر وانفجار الماء من الحجر، وما جرى هذا المجرى، وهذا الحكم أيضاً موجود في النثر، فإنه لما كان شاقاً على العرب، وليس فيهم من يقدر على الإتيان به إلا القليل، أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نهجه وطريقة، لتكون المعجزة مناسبة لما جاءت (فيه). وذلك أن النثر من حيث ذاته أمر شاق مستصعب، وانضاق إلى ذلك كونه من عند الله تعالى فصار معجزاً بالضرورة » [36]

وأما قول بعضهم محتجا للشعر : « من فضل النَّظم أنَّ الشّواهد لا توجد إلّا فيه، والحجج لا تؤخذ إلّا منه، أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنحويّين واللّغويّين يقولون: « قال الشاعر» ، و«هذا كثير في الشّعر» و« الشّعر قد أتى به » ، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجّة، والشعر هو الحجّة » [37] فقول مبالغ فيه، فالشواهد كما جاءت في الشعر جاءت كذلك في النثر، وخير شاهد القرآن والسنة وأقوال علماء والحكماء والزهاد وغير ذلك.

ومن الأدلة كذلك قول الخالع : « للشّعراء حلبة، وليس للبلغاء حلبة، وإذا تتبّعت جوائز الشّعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء وولاة العهود والأمراء والولاة في مقاماتهم المؤرّخة، ومجالسهم الفاخرة، وأنديتهم المشهورة، وجدتها خارجة عن الحصر، بعيدة من الإحصاء، وإذا تتبّعت هذه الحال لأصحاب النّثر لم تجد شيئا من ذلك، والناس يقولون: ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشّعر ! ولا يقولون: ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النّثر! وهذا لغنى الناظم عن النّاثر، وفقر الناثر إلى الناظم » [38]

الملاحظ أن الشق الأول من المقولة فيه مغالطة واضحة، وهي أن حظوة الكتاب لدى الخلفاء والأمراء لا تقل شأوا عن الشعراء، ويمكن أن تفوقها في بعض الأحيان، بحيث إن منهم من كان مقدما ومنادما بل ووزيرا لدى أولي الأمر وما ابن العميد وعبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون ويحي البرمكي وغيرهم عنا ببعيد، يقول ابن الأثير في هذا الصدد : « إن الناثر تعلو درجته حتى ينال الوزارة للخلفاء والملوك، وأما الشاعر فلا تعلو درجته عن رتبة المستعطين، ومنزلة الطالبين لما في أيدي الناس. ولولا فضل النائر وما عرف من شرف صنعته والحاجة إليها، لما رقي إلى درجة الوزارة. وكذلك الشاعر؛ فلولا كساد صنعته والاستغناء عنها، لعلت درجته وارتفعت منزلته » [39]

أما الشق الثاني فحقٌّ إلا أن غنى النظم عن النثر لا يغضُّ منه، لأن العرف العربي سار على هذا، وإلَّا فإنَّ لكل واحد منهما خصائصه المميزة التي تجعله يفضل بها قسيمه.

هذا وقد عقد أبو حيان التوحيدي المقابسة الستين بعنوان : " في النثر والنظم وأيهما أشد أثراً في النفس "، نقل فيها كلاما عن أبي سليمان المنطقي مفضلا النظم على النثر قوله : « وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدل على الطبيعة؛ لأن النظم من حيز التركيب، والنثر أدل على العقل؛ لأن النثر من حيز البساطة. **وإنما تقبلنا المنظوم** بأكثر مما تقبلنا المنثور لأنَّا للطبيعة أكثر منا بالعقل، والوزن معشوق للطبيعة والحس؛ ولذلك يفتقر له عند ما يعرض استكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا حظ للفظ عنده وإن كان متشوقاً معشوقاً. والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة؛ أن المعنى متى صور بالسانح والخاطر وتوفي الحكم لم يبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف. لكن العقل مع هذا يتخير لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة؟ بل الذي يستند إليها ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه

وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخلوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل » [40]

ومن طريف أدلة أنصار الشعر أنهم ذكروا قول الناس :« ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشّعر، ولا يقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر، لأنّ صورة المنظوم محفوظة، وصورة المنثور ضائعة » [41]

يقول طه حسين : « فأما الشعراء وأنصارهم فزعموا أن الشعر خير من النثر؛ لأن الشعر يكلف صاحبه، عندما يتكلفه: القافية والوزن، ، ثم مضوا إلى أبعد من هذا، رأوا أن الشعر أفضل من النثر؛ لأنه ديوان العرب، وفيه قُيِّدت مفاخرهم، وإليه يرجع الفضل في تخليد ما لهم من فضائل قديمة. ثم مضوا إلى أكثر من هذا في أنه أفضل؛ لأن الشعر يلائم الموسيقى، ثم لأنه موضوع الغناء، فهو مصدر اللذة الغنائية والموسيقية معا » [42]

القَائِلُونَ بِأَفْضَلِيَّةِ النَّثْرِ عَلَى الشِّعْرِ:

من العجيب أن يرى الدارس للنقد العربي القديم انصرافا شبه كامل عن دراسة النثر في مختلف العصور الأدبية، واتجاهها صوب الشعر دراسة لم تترك فيه صغيرة ولا كبيرة إلا تناولتها، ولعل السبب إجمالا يرجع إلى مركزية الشعر في الوجدان العربي، وفي المؤسسات الرسمية، واعتبار غيره من الكلام لا يعدو أن يكون فرعا عن أصل، وفاضلا من مفضول، خاصة وأن النثر في تلك الحقب كان يُنظر إليه بوصفه خطابا يعبِّر عن حقول معرفية؛ علمية ودينية وسياسية، لا أنه يحمل في ذاته مقومات أدبية وفنية، بل إن كثيرا من الخطابات النثرية كالقصص (كقصص كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة مثلا) والملح والنوادر والمقامات، كانت أقرب لاهتمامات السوقة والطبقات الدنيا منها إلى الطبقات المثقفة، وبلاطات الخلفاء والأمراء، ولهذا ضرب عليها العقل العربي صفحا، إلا عند مؤلفين يعدون على أصابع اليد ممن تناولوا جزءا من الكتابة النثرية ممثلة في صفة أساسية في الرسائل والتوقيعات والمناظرات، ومع كل هذا فإن كثيرا من النقاد المعروفين قد نوهوا إلى أهمية النثر، بل وبالغوا في الاحتفاء به وبأصحابه، وسنحاول في هذا العنصر التطرُّق لمجمل ما قاله القوم :

يرى ابن الأثير أن المذهب القائل بأفضلية النثر على الشعر يفوق كثرة ودليلا القائلين بأفضلية الشعر على النثر، يقول في هذا : « إلا أن المذهب الفحل والقول القوي هو أن الكلام المنثور أفضل من الكلام المنظوم » [43]

ما يجعل الأمر غير مفصول فيه، وغير مترجحة فيه كفة على أخرى، وقد أجمل أبو عائذ الكرخي كما روى عنه أبو حيان التوحيدي فضائل النثر بقوله : « النّثر أصل الكلام، والنّظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكلّ واحد منهما زائنات وشائنات، فأما زائنات النّثر فهي ظاهرة، لأنّ جميع النّاس في أوّل كلامهم يقصدون النّثر، وإنما يتعرضون للنّظم في الثاني بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معيَّن » [44]

هذا وقد أورد ابن رشيق طائفة من براهين القوم واستدلالاتهم، ولما كان هو من أنصار النظم فقد حاول الردَّ عليها وإبطالها، من ذلك إيراده قول أحدهم : « إن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي صلى الله عليه وسلم

غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ ويرى أنه قد أبلغ في الحجة، وبلغ في الحاجة، والذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك » [45]

وهذه الحجة ذكرها كذلك أبو عائذ الكرخيّ في سياق المفاضلة بين الشعر والنثر، يقول في ذلك : « ومن شرفه أيضا أنّ الكتب القديمة والحديثة النازلة من السّماء على ألسنة الرّسل بالتّأييد الإلهيّ مع اختلاف اللّغات كلّها منثورة مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض، هذا أمر لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يعترض عليه بما يحرضه » [46] وذكرها أيضا القلقشندي في معرض تفضيله النثر على الشعر بقوله : « وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزّهه عنه بقوله : ﴿ **وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ** ﴾، وحرّم نظمه على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم تشريفا لمحلّه وتنزيها لمقامه منبها على ذلك بقوله : ﴿ **وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ » [47] وفي السياق نفسه ينقل أبو حيان التوحيدي عن ابن كعب الأنصاري قوله : « من شرف النّثر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم ينطق إلا به آمرا وناهيا، ومستخبرا ومخبرا، وهاديا وواعظا، وغاضبا وراضيا، وما سلب النّظم إلا لهبوطه عن درجة النّثر، ولا نزّه عنه إلا لما فيه من النّقص، ولو تساويا لنطق بهما، ولما اختلفا خصّ بأشرفهما الّذي هو أجول في جميع المواضع، وأجلب لكلّ ما يطلب من المناف » [48]

وهذا هو الوجه الأول من استدلالات ابن الأثير على أفضلية النثر يقول في ذلك : « القرآن الكريم ورد نثراً، ولولا فضله وعلو درجته، لما نزل كتاب الله – عز وجل – على أسلوبه ونهجه، وأيضاً، فإن القرآن معجزة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن المعلوم أن المعجزات لا تجيء إلا من طريق الأصعب، بحيث إنه لا يمكن أحداً من خلق الله الوصول إليها، والإتيان بمثلها. ولما كان النثر من الأقوال الشاقة، والأشياء المتصعبة، أنزل الله تعالى القرآن، الذي هو معجزة على قانونه » [49]

وهذه الحجة مع مقبوليتها وأنها تجسد واقعا مفروضا، إلا أن لها تخريجا آخر يظهر أن مناط الاستدلال بأفضلية النثر منقوض باعتبار أن القرآن الكريم إذا اتفقنا أنه أعجز الشعراء وهو ليس شعرا، « كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنثور ليس كذلك » [50] فليس نزول القرآن على النبي صلى الله عليه نثرا غضا من رسول الله كونه ليس شاعرا، إذ لو كان الأمر كذلك « لكانت أميته غضاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد » [51]، وقد

ذكر ابن فارس العلة في عدم كون النبي صلى الله عليه وسلم شاعرا بقوله : « فإن قال قائل: فما الحِكمةُ فِي تنزيه الله جل ثناؤه نبيه عن الشعر؟ قيل لَهُ: أوّل مَا فِي ذَلِكَ حكم الله جلّ ثناؤه بأنّ: ﴿ **الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾ ثُمَّ قال: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ ورسول الله – صلى الله عليه وسلم- وإن كَانَ أفضل المؤمنين إيماناً وأكثر الصالحين عَمَلاً للصالحات فلم يكن ينبغي لَهُ الشعر بحال، لأن للشعر شرائِط لا يُسمى الإنسان بغيرها شاعراً، وذلك أن إنساناً لَوْ عَمِلَ كلاماً مستقيماً موزوناً يتحرّى فِيهِ الصدق من غير أن يُفْرِط أَوْ يتعدَّى أَوْ يمين أَوْ يأتي فِيهِ بأشياء لا يمكن كونها بتَّةً لما سمّاهُ الناسُ شاعراً ولكان مَا يقوله مَخْسولاً ساقطاً.

وَقَدْ قال بعض العقلاء وسُئِل عن الشعر فقال: "إن هَزَلَ أضحكَ، وإن جَدَّ كَذَبَ" فالشاعر بين كَذِب وإضحاك، فإذا كَانَ كذا فقد نزّه الله جلّ ثناؤه نبيَّه –صلى الله عليه وسلم- عن هاتين الخِصْلتين وعن كل أمر دنِيء، وبعد فإنّا لا نكاد نرى شاعراً إلاَّ مادِحاً ضارعاً أَوْ هاجياً ذا قذع، وهذه أوصاف لا تصلُح لنبي » [52]

ومعلوم أن سبب عدم نزول القرآن شعرا هو سدُّ لذريعة اتهام المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم أن الذي نزل عليه إنما هو شعر من جنس ما كانوا يحسنونه، ولهذا جاء القرآن بخطاب مفارق لما ألفه العرب، فما هو بنثر بيِّن ولا هو بشعر، يقول طه حسين – في اجتهاد أظنه لم يسبق إليه – مصنّفًا الكلام الأدبي ثلاثة أنواع لا نوعين كما هو مشهور : « ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثرا، كما أنه ليس شعرا، إنما هو قرآن ولا يمكن أن يُسمَّى بغير هذا الاسم، ليس شعرا – وهو واضح- فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا؛ لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو ليس شعرا ولا نثرا، ولكنه ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾، فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر، كما نصَّ هو على أنه ليس شعراً » [53]

ولم يخرج المرزوقي عن هذا السياق ففضَّل النثر على الشعر؛ وذكر « أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء، موجبه تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب » [54] وأرجع ذلك لسببين هما [55]:

أولا : أن حكام العرب وملوكهم في الجاهلية كانوا يرون في الخطابة مبعث الفخر والاعتزاز، « ويعدونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة » [56] وكانوا يرون أن الخطيب في مواقف الصلح أو المنافرة وقد حسنت بديهته في الاقتضاب، وأجاد في إطالته الخطبة في الإسهاب، مع مراعاة الصفات التي يجب أن يكون عليها في تليين الصوت وتخشينه، وارتقاء منبر أو نحوه أبلغ من إنفاق المال الوفير، وتجهيز الجيش الكبير، وفي مقابل ذلك كانوا يرون أن قرض الشعر دناءة ومسقطة للمروءة، ويأنفون أن يشتهروا بذلك.

ثانيا : أن الشعر اتُّخذَ مكسبة، ومدح به السوقة من الناس، كما مدح به العلية منهم، وتسرعوا من خلاله للأعراض، « فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم، والكريمَ عند تأخر صلته بصفة اللئيم » [57]

ويذكر أبو عائذ الكرخي مقايسة بين الشعر والنثر أوردها المحتجون للثاني على الأول وذلك في قوله : « ألا ترى أنّ الإنسان لا ينطق في أوّل حاله من لدن طفوليّته إلى زمان مديد إلا بالمنثور المتبدّد، والميسور المتردّد، ولا يلهم إلا ذاك، ولا يناغى إلا بذاك، وليس كذلك المنظوم، لأنه صناعيٌّ، ألا ترى أنّه داخل في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقّي الكسر، واحتمال أصناف الزّحاف، لأنّه لما هبطت درجته عن تلك الرّبوة العالية، دخلته الآفة من كلّ ناحية » [58]

ومما يمكن أن يردَّ به أصحاب أفضلية الشعر على هذه الفكرة أن أصحابها لم يفرقوا بين النثر الفني المقصود بالمفاضلة بينه وبين الشعر، وبين النثر اليومي العادي، فالإنسان في طفولته أول ما يتكلم إنما يتكلم بالنثر العادي الذي لا فضيلة له في نفسه، أما قولهم : إن الشعر صناعيٌّ محكوم بقيود الوزن والتأليف، ويدخله الكسر وتصيبه الزحافات، فهي تعدُّ فضيلة لا منقصة؛ لأن البارع في صناعة الشعر الآخذ بعين الاعتبار المعطيات السابقة يمدح بها، لا يذمُّ عليها، فالنثر وإن كان صناعة كالشعر، إلا أن النثر مقدور عليه في الغالب، بخلاف الشعر الذي يتطلب ملكة ودربة وتعلما، وهذا ما ذكره السلاميُّ في قوله : « من فضائل النّظم أن صار لنا صناعة برأسها، وتكلّم الناس في قوافيها، وتوسّعوا في تصاريفها وأعاريضها، وتصرّفوا في بحورها، واطّلعوا على عجائب ما استحزن فيها من آثار الطّبيعة الشّريعة، وشواهد القدرة الصادقة، وما هكذا النّثر، فإنّه قصّر عن هذه الذّروة الشّامخة، والقلّة العالية، فصار بذلك بذلة لكافّة الناطقين من الخاصّة والعامّة والنساء والصّبيان » [59]

ولكن الزعم بسهولة النثر بالقياس إلى الشعر باعتبار الأخير صناعة مركبة تستلزم جملة من الأمور الفطرية والعلمية ينتقض بقول ابن الأثير : « وممَّا يدلك على أن النثر أشق من النظم، وأصعب مأخذاً، هو أن العرب كانوا أفصح الناس، وأبلغهم وأكثرهم قدرة على التفنن في الكلام، زعم هذا فلم نسمع لأحد منهم نثراً، إلا قس بن ساعدة، الذي يضرب بكلامه المثل في الفصاحة والبلاغة، ولأقوام آخرين وهم قليل، وأما النظم، فإن جميع العرب كانوا يقولونه وكان عليهم من أسهل الأشياء حتى على نسائهم » [60] حيث إن المطالع لما قيل شعرا لا يكاد يستطيع حصره في عصر أو مصر واحد، فما بالك في مختلف الأعصار والأمصار، والشيء كلما كثر رخص وقلة قيمته، إذ « من المعلوم أن الإنسان إذا كان مكثراً من شيء أستدل بذلك على قدرته عليه، و (عدم) قصوره عن الوصول إليه » [61]

ويقول القلقشندي مبرزا أفضلية النثر على الشعر : « اعلم أنّ الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، (...)، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاما، وأحسن نظاما، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تلجىء إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك

فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطّت رتبته» [62]

ويضيف أسبابا أخرى متعلقة بالشعر ومعايبه، وبالنثر ومحاسنه وذلك في قوله : « وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة، والصفات المجاوزة للحدّ، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزّور، وقول البهتان، وسبّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأفحله. بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخطب والترسّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخطب كلام مبنيّ على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والتذكير والترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصّلاح والإصلاح، والحث على التعاضد والتعاطف، ورفض التباغض والتقاطع، وطاعة الأئمة، وصلة الرحم، ورعاية الذمم، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى مما هو مستحسن شرعا وعقلا » [63]

إن النص السابق فيه مغالطات واضحة؛ حيث إن القلقشندي جعل كثيرا من مضامين الشعر المستقبحة دليلا على علو كعب النثر عليه، وهذه المضامين جلها أو كلها موجودة في النثر كذلك لا يمكن أن يبرأ منها، وما ذكره من مضامين مستحسنة للنثر، فللشعر منها نصيب، والأغراض الشعرية كالزهد والتصوف والمولديات وشعر الحكمة وإصلاح ذات البين أشهر من أن تذكر.

ويضيف أبو عائذ الكرخيّ دليلا آخر يحتج به أنصار هذا الرأي وهو« أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصَّفاء أقرب، ولا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشيء وبقائه، وبهائه ونقائه » [64] ونحن لا ندري ما المقصود بهذه الوحدة، هل هي وحدة الغرض؟ أم وحدة البناء الشكلي؟ أم وحدة الصناعة الفنية من أوله إلى آخره؟ ولعلَّ كل ما ذكر الشعر أيضا له منها حظ قلَّ أم كثر.

وممن يفهم من كلامهم تفضيل النثر على الشعر واقتناعهم به ابن شُهيد، وإن كان يعجبه الشعر وذلك في قوله : « تذاكرتُ يوماً مع زُهير بن نُميرٍ أخبار الخُطباء والشعُّراء (...) فقال لي: حللتَ أرض الجن أبا عامر، فبمن تُريدُ أن نبدأ؟ قلتُ: الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشوق » [65]

يقول طه حسين : « ولم يقصر أنصار النثر في الاحتجاج لفنهم، فقالوا: لا ننكر ما للشعر من فضل ومزية، ولكن نرى أن النثر أفضل منه؛ لأنه يفي بضروريات الحياة، ولأن الشعر لا يكون فنًّا من فنون اللهو، ورأوا أن النثر لغة السياسة ولغة الدين ولغة العلم، وإذن فقد يكون الشعر ذا مكانة، ولكن النثر أشد مساسا بحاجات الإنسان، وأشد اتصالا بما يتجه إليه؛ وإذن فالنثر أفضل من الشعر، وزادوا على هذا أن الشاعر ينشد واقفًا، على حين أن النَّاثر يستطيع أن يتكلم واقفًا أو جالسا » [66]

خُلَاصَةُ القَوْلِ فِي المُفَاضَلَةِ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ :

ولعلَّ الرأي الوسط في هذه المسألة هي أن لكل من النثر والشعر ما يميزه، وأنهما – بالنظر إلى المحاسن التي ذكرت — يستويان فنَّين لهما أهميتهما الأدبية والاجتماعية والفكرية، وأنهما جاءا استجابة للرّاهن العربي في كل زمان مكان، وأنهما عكسا واقع البيئة العربية، يقول الخالع مبينا خلاصة القول فيهما : « فإذا كان الأمر في هذه الحال على ما وصفنا فللنثر فضيلته الّتي لا تنكر، وللنّظم شرفه الّذي لا يجحد ولا يستر، لأنّ مناقب النّثر في مقابلة مناقب النّظم، ومثالب النّظم في مقابلة مثالب النّثر، والذي لابدّ منه فيهما السّلامة والدّقّة، وتجنّب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص » [67]

وإلى هذا الرأي يذهب ابن المقفع الذي جعل البلاغة هي المشترك الفني بين الشعر والنثر، فهما وإن اختلفا شكلا، فوصف البلاغة يشملهما معا، فقد سئل عن البلاغة، فقال : « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل ... » [68] وهذا المعنى قرره كذلك أبو سليمان المنطقي في قوله : « البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشّعر ومنها بلاغة الخطابة ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل » [69]

إذن فالنقاش حول هذه القضية المفاضلة بين الشعر والنثر هو نقاش مع أهميته إلا أنه لا يقدم جديدا فيما يخص حقيقتهما، فلكل واحد منهما طبيعته وخصائصه ووظائفه وحدوده المائزة، وإن كان في الحقيقة ليس هناك اختلاف فيما بينهما إلا في الوزن والقافية كما يرى أحمد بدوي، وذلك في قوله : « إن النقاد لم يكونوا ينظرون إلى أن هناك فاصلا يحجز بين الشعر والنثر من حيث حقيقتهما الفنية، وأنهما كلام يُصاغ للتأثير في نفس سامعه وقارئه، اللهم إلا الوزن والقافية، فالمعاني التي صاغها الشعر يستطيع النثر أن يصوغها كذلك، والاستعارات التي يستخدمها الشعر، يستخدمها النثر أيضا، والتشبيه المصيب في الشعر، هو مصيب في النثر كذلك، ومن هنا تتشابه اللغتان : لغة الشعر، ولغة النثر، حتى لا يفرق بينهما إلا ما يمتاز به الشعر : من وزن دقيق، وقافية ملتزمة» [70]

إن الملاحظ لما جاء عند بعض النقاد القدامى يدرك وصولهم إلى مفهومٍ مبكر للشعرية كما طرحها النقد المعاصر، حيث تكلموا عما يصير به النثر نثرا والشعر شعرا، وهو اتصاف أحدهما ببعض صفات الآخر، يقول ابن هندو الكاتب: « إذا نظر في النظم والنَّثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطّلاع على هواديهما وتواليهما كان أنَّ المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنّهما يستهمان هذا النّعت لما ائتلفا ولا اختلفا» [71]

وقد شرح أبو حيان التوحيدي هذا المعنى بقوله : « أحسن الكلام ما رقّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم، يطمع مشهوده بالسّمع، ويمتنع مقصوده على الطّبع »[72]

وهو ما قاله أبو سليمان المنطقي كذلك : « ومع هذا ففي النثر ظل النظم، ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه »[73]

أما بالنظر إلى صاحب الشعر أو صاحب النثر، فقد رأى بعض النقاد أن الخلاف في تفضيل أحد الفنين على الآخر يسقط بتمكن أحدهما من الفنَّين معا، بحيث يُكتب له الكمال لجمعه بين وجهي البراعة جميعا شعرا ونثرا، وفي هذا يقول أبو هلال السعكري: « ومع ذلك فإنَّ من أكمل الصفات صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين، كما أن من أتمِّ صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا »[74]

خَاتِمَةٌ :

من خلال ما سبق يمكن تلخيص مضمون هذه الدراسة في أنَّ النقاد القدامى قد فاضلوا بين الشعر والنثر ووازنوا بينهما، وأوردوا لأجل ذلك حججا وأدلة كثيرة تشهد لما ذهبوا إليه، وقد كان المذهب القائل بتفضيل الشعر على النثر ينطلق من مركزية الشعر في الدوائر الرسمية وفي المتخيل العربي، والذين يفضلون النثر يرون فيه مزية زائدة عن الشعر من عدة اعتبارات، وبين هذا وذاك ظهر النقاش عند المعاصرين حول أسبقية الشعر والنثر، وإثبات وجود نثر فني في الجاهلية من عدمه، وفيما يلي يمكن ذكر أهم النتائج المتوصل إليها:

*/ غلبة القائلين بأسبقية الشعر على النثر في الدرس النقدي الحديث يرجع لمجموعة من الشواهد والقرائن العقلية واللغوية والتاريخية والبيولوجية وعلى رأس أولئك طه حسين والعقاد.

*/ القائلون بأسبقية النثر على الشعر ينطلقون في ذلك من مناقشة أدلة القائلين بأسبقية الشعر على النثر والرد عليها.

*/ صعوبة ترجيح كفة على أخرى فيما يخصُّ الأسبقية بين الشعر والنثر يرجع أساسا لغياب معطيات قاطعة في هذه القضية.

*/ القول بظهور نثر فني في الجاهلية أقرب إلى الصواب، لاعتماده أدلة قوية؛ عقلية ولغوية وتاريخية تثبت ذلك .

*/ اختلاف وجهات النظر بين النقاد العرب القدامى منذ القرن الثالث الهجري في المفاضلة بين الشعر والنثر لعدة اعتبارات ترجع في مجلها لحقيقة وجوهر كل منهما، ولزوايا الرؤية عند أصحاب كلا المذهبين.

*/ صعوبة الترجيح بين كلا الرأيين لتكافؤ الأدلة وصحتها، مما يجعل الحكم لأحدهما على الآخر من الصعوبة البالغة.

*/ لعل الرأي الفصل في هذه القضية هو إثبات الخصوصية الفنية والفكرية لكل واحد منهما، وأنهما جاءا استجابة للراهن العربي في كل زمان ومكان؛ فلكل واحد منهما طبيعته وخصائصه ووظيفته التي تميزه.

اقْتِرَاحَاتٌ وَتَوْصِيَّاتٌ :

*/ تعميق دراسة القضايا المرتبطة بالعلاقة بين الشعر النثر في الثقافة العربية، وإقامة ملتقيات وندوات وأيام دراسية في هذا الصدد.

*/ توسيع النقاشات حول البنية التكوينية للأجناس النثرية والسردية والشعرية، وتوجيه طلبة العلم إليها، لإنجاز مشاريع بحثية في ذلك.

*/ إعادة قراءة المنجزات النقدية القديمة في نظرتها للسمات والخصائص المميزة للشعر والنثر بعدسات نقدية حديثة، حتى يتسنى لنا استثمار ذلك في بعث الدرس النقدي العربي ووصل مع انقطع منه في ثقافتنا النقدية والأدبية المعاصرة.

الهَوَامِشُ وَالإِحَالَاتُ:

[1] – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط04، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص 399.

[2] – يعدُّ طه حسين من أشهر القائلين بأسبقية الشعر على النثر وذلك في محاضرته التي ألقاها سنة 1930م، بقاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة بعنوان " النثر في القرنين الثاني والثالث للهجرة"، ثم نشرها بعد ذلك في كتابه ((من حديث الشعر والنثر))، وكذلك كاتب الفصل الخاص بفن الشعر من كتاب (التوجيه الأدبي) الذي اشترك في تأليفه طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد.

[3] – طه حسين وأخرون، التوجيه الأدبي، ط01، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2016، ص 137.

[4] – عباس محمود العقاد، حياة قلم، ط02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1969، ص 303.

[5] – طه حسين، في الأدب الجاهلي، ط02، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014، ص 286.

[6] – المرجع نفسه، ص 286- 287.

[7] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط01، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص 25.

[8] – المرجع نفسه، ص 26.

[9] – عباس محمود العقاد، حياة قلم، مرجع سبق ذكره، ص302.

[10] – الصفحة نفسها.

[11] – المرجع نفسه، ص 302- 303.

[12] – عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ط08، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2013، ص 75.

[13] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 27.

[14] – عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، مرجع سبق ذكره، ص 75.

[15] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ط01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1424هـ، ص 249 -250.

[16] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص26.

[17] – المرجع نفسه، ص24.

[18] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ط01، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986، ص 107.

[19] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 26.

[20]– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين،ط07، ج01، تح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1998، ص 287.

[21] – زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص 36.

[22] – غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)،ط01، دار الرشاد، حمص، سوريا، 1992، ص539.

[23] – أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص 73.

[24] – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، ط02، تح : رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1985، ص80.

[25] – أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ط01، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1952، ص 137- 138.

[26] – يقصد الجاحظ بالسلم: الصياغة الفنية التي يتفرع عنها الخطاب الشعري والنثري، والتي يكتسب كل خطاب من خلالها كينونته الخاصة به.

[27] – عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ط04، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص138.

[28] – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط05، ج01، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1981، ص19.

[29] – الصفحة نفسها.

[30] – المصدر نفسه، ج01، ص 22.

[31] – الصفحة نفسها.

[32] – أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، ط01، ج01، تح : جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1919، ص124.

[33] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 252.

[34] – أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح : مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، 1956، ص 74.

[35] – الصفحة نفسها.

[36] – المرجع نفسه، ص 75.

[37] – المرجع نفسه، ص 74.

[38] – الصفحة نفسها.

[39] – المرجع نفسه، ص 75.

[40] – أبو حيان التوحيدي، المقابسات،ط02، تح : حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992، ص 245.

[41] – الصفحة نفسها.

[42] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 24.

43 – أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص 73.

44 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

45 – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 20- 21.

46 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

47 – أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ص90.

48 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 251.

49 – أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص73.

50 – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص21.

51 – الصفحة نفسها.

52 – أبو الحسن أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها،ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ص 211 – 212.

53 – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 26- 27.

54 – أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، ط01، تح: أحمد أمين عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، 1991، ص 16.

55 – يُنظر: المصدر نفسه، ج01، ص 16 – 18.

56 – المصدر نفسه، ج01، ص16.

57 – المصدر نفسه، ج01، ص16-17.

58 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

59 – المرجع نفسه، ص 251 – 252.

60 – أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص73.

61 – المرجع نفسه، ص 74.

62 – أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، مرجع سبق ذكره، ص 89.

63 – المرجع نفسه، ج01، ص91.

64 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

65 – أبو عامر أحمد بن شُهيد الأندلسي، التوابع والزوابع،ط02، تح: بطرس البستاني، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، 1996، ص 87.

66 – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 24.

67 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 253.

68 – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص115- 116.

69 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 254.

70 – أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ط01، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1996، ص33.

71 – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 251.

72 – المرجع نفسه، ص 256.

73 – أبو حيان التوحيدي، المقابسات، مرجع سبق ذكره، ص 245– 246.

74 – أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مصدر سبق ذكره، ص 138– 139.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ :

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

01– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان ، ط04، 1983.

– أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط01، 1996.

02 – أبو الحسن أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1997،01.

03– حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1986.

أبو حيان التوحيدي:

04– المقابسات، تح : حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط02، 1992.

05– الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1424،01هـ.

06– ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981.

07– زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012.

طه حسين :

08– في الأدب الجاهلي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط02، مصر، 2014.

09– من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط01، مصر، 2012.

10– طه حسين وأخرون، التوجيه الأدبي، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2016.

11– أبو عامر أحمد بن شُهيد الأندلسي، التوابع والزوابع، تح: بطرس البستاني، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، ط02، 1996.

12– أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.

13– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، تح : رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1985،02.

14– عباس محمود العقاد، حياة قلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1969.

15– عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط04، 1993.

16– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، تح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط07، 1998.

17– عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2013،08 .

18– أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، تح: أحمد أمين عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1991،01.

19- أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، ج01، تح : جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط01، 1919.

20- غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الرشاد، حمص، سوريا، ط01، 1992 .

21- أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح : مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، 1956.

22- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1952.